تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

وقد وضع الاسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن ونهى عنها فى قوله [1] (ولاَ تَقْتُلوا أولاَدَكُمْ خشْيَة إملاَقٍ نحْنُ نَرْزُقهُمْ وإيّاكُمْ إنَّ قتلَهُمْ كانَ خطأً كبيراً) وربما كانت الأبيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح ، وفيها نرى صراعا عنيفاً بين رجل وبين الفاقة ، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها [2] :

لوْلاَ أُمَيْمَةُ لمْ أجزَع منَ العَدَمِ
ولَمْ أُقاسِ الدُّجَى فِى حِنْدِسِ الظلَمِ
وَزَادَنِى رَغْبَةً فى العَيْشِ معْرفتى
ذُلَّ اليَتِيمةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقْرَ يَوْماً أنْ يُلِمَّ بِهَا
فيَهْتِكُ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
يهْوَى حيَاتى وأهوَى مَوْتَها شَغَفاً
والمَوْتُ أكْرَمُ نَزّالٍ على الحُرُمِ
أخشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جفاءَ أخٍ
وكُنْتُ أبْقِى عليهَا منْ أذَى الكلِمِ [3]

ويقول آخر فى هذا الموضوع : [4]

لوْلا بُنَيّاتُ كزُغْبِ القَطا رُدِدْنَ منْ بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لكانَ لى مضْطرَبٌ واسِعٌ
فى الأرْضِ ذاتِ الطولِ والعَرْضِ
وإنَّمَا أوْلادُنا بيْنَنَا أكْبَادُنا تمْشى علَى الأرْضِ
لوْ هبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ لامْتَنَعَتْ عيْنِى مِنَ الغَمْضِ [5]

* * *

الحب والبغض Adi et Amo هاتان الكلمتان هما جماع الآداب البدوية ؛ لأنه إذا كان العربى - كما رأينا - صديقاً حميما لخلاّنه ، فانه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى ؛ تضطرم نفسه وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء ، وكانوا يعدون من لا يرد اللطمة التى أصابته جباناً ، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثأر لنفسه وينتقم لها ، وأنشد بعض الأعراب ، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أبياناً يقول فيها عن عشيرته التى لم تساعده فى استرجاعها :

لكنَّ قوْمى وإن كانوا ذوِى عدَدٍ
ليْسُوا من الشَّرِّ فى شىءٍ وإنْ هانا
يَجْزُونَ منْ ظُلمِ أهلِ الظلمِ مَغْفِرَةً
ومن إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحسانا [6]

والبيت الثانى الذى قد يسرف فى مدح من يتصف به الاخلاقيون المسيحيون والمسلمون ألْحقَ بمن قيل فيهم عاراً لا تمحى آثاره ، وإن المنهج البيِّن فى معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الأبيات التالية :

إذا المرْءُ أوْلاكَ الهَوَانَ فأوْلِهِ
هَوَاناً وإن كانتْ قَرِيباً أواصِرُهْ
فانْ أنْتَ لمْ تَقْدِرْ على أن تهِينَهُ
فَدَعْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنْتَ قادِرُهْ

---

(١) الاسراء (١٧ : ٣١) وقد ورد فى القرآن الكريم فى موضع آخر (التكوير ٨ - ٩) يوم الموقف والسؤال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت)

(٢) الحماسة ١٤٠ . وبالرغم من أن هذه الأبيات لم تنظم فى الجاهلية وانما ترجع إلى عصر متأخر فى الاسلام الا أنها تمثل هذه النزعة الوثنية تمام التمثيل وقد عاش ناظمها اسحق بن خلف أيام الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وقد تبنى بنت أخته إذ ماتت ابنته . راجع كذلك الكامل للمبرد ص ٧١٥ ، وقد ترجم المقطوعتين سير شارلز ليل فى كتابه Anc. Ar. Poetry, P. 26

(٣) ذكر المبرد قصيدة فى هذا المعنى وهى التى أشار اليها نيكلسون وترجمها ليل:

أمست أميمة مقصوراً بها الرحم لقى صعيد عليها الترب مرتكم
ياشقة النفس ان النفس واهلة حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى الى الحمام فيبدى وجهها الندم
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى بهدا النهور اذا ماأودت الحرم
فلموت عندى أياد لست أنكرها أحب سرورا وبى عما أتى ألم
(المترجم)

(٤) هو حطان بن المعلى (المترجم)

(2) Charles Lyall : Anc. Arabian Poetry, P. 28.

والحماسة ص ١٤٢

(٥) الحماسة ص ٧

وقارِبْ إذا مَا لَمْ تَكُنْ لكَ حِيلة
وصَمِّمْ إذا أيْقَنْتَ أنَّكَ عَاقِرُهْ (١)

وفوق كل هذا فان الدم يدعو الدم ، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربى الوثنى ؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية اذا لم تجب حرمتهم النوم والشهية والصحة ، كما كان ظمأ محرقاً لا يطفىء أواره أو يبل لهيبه سوى الدم ، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون ، وإن كان قليلا ما يمنع الرجل من أداء عمله فى هدوء وتبصر . وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته . وإذ ذاك تستقر الأمور فى نصابها ويندمل الجرح ، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموى دائم . تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها ، كما حدث ذلك فى مقتل كليب الذى أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشتجرة زهاء أربعين عاما بين قبيلتى بكر وتغلب ، ويقبل أقرب أقرباء القتيل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهى تعد مسكوكات الاقليم ، وان قبولهم ذلك ليوحى إليهم دائماً أنهم فضلوا اللبن (النياق) وآثروه على الدم (٢) ، وان الشعور العربى الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذى يقول فيه الشاعر :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً على قضاء الله ما كان جالبا (٣)

وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تظل شاخصة على قبره وتسمى « الهامة » أو الصدى ، وتصيح : « اسقونى ، اسقونى » حتى يؤخذ لها الثأر ممن اعتدى على صاحبها ، ولكن الأفكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضى أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوى ، والشفقة البنوية وأخوة السلاح .

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتبعة فى الانتقام والأخذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية فى صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطة — لأطلقوا لغرائزهم المجرمة العنان ، ولم يكبحوا لها جماحا ، إذ لا يخشون إذ ذاك رادعاً أو إلا ، ولا يصدهم إرهاب ، أما من وجهة نظرنا نحن فان قيمة هذا الأمر لا تهمنا من حيث هو أحد الأسس الأولية فى إقامة دعائم صرح المجتمع العربى بقدر ما تهمنا من أنه يكون عنصرا من عناصر الحياة العربية والأدب العربى ، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغانى قصة تنعكس فيها هذه الصور بأكملها ، تلك هى قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم ممن اغتالوا أباه وجده (١) .

* * *

والقصائد التى يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهراق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستهجن فى العربى الوثنى ، فنجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدى على ذوى قرباه ومن كانوا من لحمه ودمه ، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة ، وقسوته وغدره ، وضراوته فى تعقب القتلة . وإن القصيدة التى تجسم لنا هذه الصفات كلها هى القصيدة المنسوبة إلى « تأبط شرًّا » ، وإن كان البعض يزعم أن صاحبها « خلف الأحمر » المنتحل المعروف لقطعة الشنفرى ، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(يتبع) حسن عبشى

(١) الحماسة ٢٢١

(٢) راجع ما كتبه Ruckert فى ترجمته للحماسة ج ١ ص ٦٦ وما يليها

(٣) الحماسة ٢٠

(١) لم نشأ أن نذكر القصة كما ذكرها الأستاذ نيكلسون لطولها ، ويمكن للقارىء العربى الرجوع اليها فى الأغانى ج ٢ ص ١٦٠ أ.ا عن عادات البدو فيمكنه مراجعة ما كتبه Burckhardt بيركهادت فى كتابه : Notes on the Bedowins and Wahàbys (London 1831) Vol. I, P. 160 sqq & 329 sqq.

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لهيرشفلد فرع القاهرة بعمارة روفيه رقم ٤٦ شارع المدابغ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات والأمراض والشذوذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والشيخوخة المبكرة ويعالج بصفة خاصة بسرعة الصدق طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ وسه ٤-٦ .. ملاحظة : يمكن اعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بصدأن يجيبوا على مجموعة الأسئلة البيكولوجية المحررة على ١٤١ سؤالا التى يمكن الحصول عليها بقيمة ٥ قروش